هل اسْتَوَت القرعاءُ بذات الشَّعْر في عصر الذكاء الإصطناعي؟

فلاح حكمت اسحق*

مقدمة: تشوّش جديد في صورة قديمة

كثيراً ما تردّد في ثقافتنا التعبيرُ ذو الصياغة الإستفهامية الساخرة: **(هل استوت القرعاء بذات الشّعْر؟)** للدلالة على أنّ الفروق بين الناس ليست موضوعة عابرة نتناولها من غير تدقيق، وأنّ تباين القدرات والمواهب، سواءٌ كان حتمية وراثية أو مؤثرات تفاعلية مكتسبة، هو أمرٌ لا يمكن إلغاؤه بقرار فوقيّ أو ظرف طارئ. مع صعود تقنيات الذكاء الإصطناعي وتعاظمها المتسارع، عاد هذا السؤال مطروحاً بنبرة مختلفة، وبقلق حقيقي :هل هذه التقنية القوية -التي فاقت كلّ الثورات التقنية السابقة لها بكونها مبشّرة بعصر تنوير جديد- جعلت الجميع: المتمرّس والجاهل، الموهوب وعديم

الموهبة، في مستوى فكري وأدائي واحد؟ هل صار كلُّ من يملك وَصْلة بالإنترنت قادراً على الكتابة والإبداع وإنتاج المحتوى دون معاناة جهد التفكّر والإبداع؟ وهل هذا يعني نهاية التفوّق الفردي، أو إنحسار قيمة المثابرة والصبر والصقل؟

هذا التصوّرُ لا يبدو جديداً تماماً؛ فهو يُعيد إلى الواجهة علاقة قديمة بين البشر والأدوات: **كل أداة جديدة يُعدّها البعض باباً للخلاص والقدرة الفورية، بينما يراها آخرون تهديداً وجودياً لمكانة الإنسان؛** غير أنّ الحقيقة - بقدر ما يعينني الإجتهادُ في هذا الموضوع- أكثر تعقيداً، بل وأكثرُ إنصافاً للقدرة البشريّة مما يُظَنّ.

القوّة ليست هي المساواة

عندما ظهرت الكتابة قبل آلاف السنين، ظنّ البعض أنّها ستقضي على الذاكرة، وأنّ اعتماد الإنسان على الورق سيجعل عقله أضعف أداءً. وعندما ظهرت الطباعة، قال آخرون إنّ وفرة الكتب ستجعل العلم سلعة رخيصة بغير قيمة. الأمر نفسه شهدناه مع مقْدَم الكهرباء، والراديو، والحاسوب، والإنترنت. اليوم نشهد الأمر ذاته يحصل مع الذكاء الإصطناعي.

لكن لنحدّدْ منذ البدء أنّ ثمة خلطاً بين مفهومين: **إتاحة القوّة، وإلغاء الفوارق.** الذكاء الإصطناعي أتاح للناس قدراتٍ لم تكن متاحة فيما سبق: تلخيص نصوص، صياغة رسائل، تحليل بيانات، اقتراح أفكار.... ؛ لكنّه لم يُلغِ الفروق البنيوية بين الناس، بل حتّى أنّه كشفها وأعلنها على الملأ. **الفكرة الجوهرية وراء هذا هي أنّ امتلاك الأداة لا يعني -بالضرورة- حُسْن استخدامها، تماماً كما أنّ امتلاك سيّارة فورميولا-1 لا يجعل سائقاً مبتدئاً بطلاً عالميّاً!!.**

الكتابة ليست نصّاً فقط؛ بل وعيٌ يسبق النص

من يتصوّر أنّ أدوات الذكاء الإصطناعي (تكتب بدلاً عنه) يتجاهلُ أنّ الكتابة ليست محض فعالية ناجمة عن رصف كلمات. إنها موقف فكري، ورؤية للعالم، وقدرةٌ على اتخاذ قرار، وذائقة، وإحساسٌ بالسياق، وجرأة على التفكير وطرق الأبواب الموصدة، وفلسفة ضمنية في كل جملة في سياق الرؤية الفلسفية الشاملة. هذه الأشياء لا تمنحُها أيُّ أداة جاهزة. الذكاء الإصطناعي يمتلك قدرة صياغة العبارات؛ لكنه لا يعرف ما الذي يريد الكاتب قوله ، وفي أيّ سياق. يمكنه أن يعطيك فقرات عديدة قدر ما تشاء؛ لكنه لا يمنح النصّ روحاً. يمكنه أن ينتج لك نصّاً مقبولاً؛ لكنه لا يخلق لك

بصمتك، ولا يختار لك أسئلتك، ولا يحدّدُ لك أولوياتك، ولا يصنع لك مشروعك الفكري.

إنّ من يحوزُ رؤية سيستخدم الذكاء الإصطناعي لتسريع تنفيذها؛ أمّا من لا رؤية له لن تمنحه الأدوات رؤية. هنا لن تستوي القرعاء بذات الشّعْر يوماً، بل تكاد الفوارق تتسع بفعل موهبة الذكاء الإصطناعي التي لا يمنحها للمتكاسلين أو المفتقدين للأدوات التحليلية اللازمة.

كلُّ تقنية تُضعِف عضواً وتقوّي آخر: مثال السيّارة

السيارة ذات محرك الإحتراق الداخلي إستعارة رائعة في هذا الشأن.

ظهور السيارة لم يُلغِ القدرة البدنية للبشر؛ لكنّه أضعَف استخدامها، وأوهَمَ الناس بأنّ المشي صار فعالية بشرية مضى عهدُها. مع ذلك، لم يُمْنَعْ أحدٌ - حين يريد الحفاظ على لياقته وصحّته- من المشي، أو الركض، أو صعود السلالم. الأمرُ منوطٌ بنا وبفهمنا وبرغبتنا في نهاية المطاف.

التقنية توفّرُ خياراً لكنها لا تفرُضُ قَدَراً. هي تخلق (السهولة) لكنّها لا تلغي الطريق الشاق. الطريق لا يزال هناك، والخيار بيدك أن تسلكه أو لا.

لنعُدْ إلى المثال الإستعاري الخاص بالسيّارة. يمكنُ أن ننشئ مثالاً موازياً له مع الذكاء الإصطناعي. الذكاء الإصطناعي قد يسهّل الكتابة؛ لكنّه لا يمنعك من الكتابة بنفسك، ولا يلغي قيمة الجهد الفرداني، ولا يوهنُ عضلات التفكير لديك إلّا إذا اخترتَ أنت أن تتخلّى عنها.

التقنية لا تُفسدُ الإنسان؛ بل الإنسان هو من يسمح لها بذلك عندما يشاء.

هل ألغى الذكاء الإصطناعي الفروقات؟

لنفحص الحقائق التالية التي أراها أقرب لقوانين الميكانيك النيوتني:

- من يملك معرفة مسبّقة يفوق من يفتقدها دائماً

مَنْ يكتب مقالاً وهو يفهم موضوعه، حتى لو كان مستعيناً بالذكاء الإصطناعي، سيخرج بنصٍ ذي ميزة نوعية واضحة بالمقارنة مع شخص يكتب بلا معرفة. الذكاء الإصطناعي لا يستطيع تعويض نقص الثقافة، وفقر المفاهيم، وضعف التحليل، وغياب التجربة، وعدم الإحاطة بالموضوع. الأداة التقنيّة تصبح في يد الجاهل مصدراً للتسطّح، بينما تصبح في يد العارف أداةَ مضاعفةٍ لقدرة التفكّر والمساءلة والتنقيب.

- جودة الكتابة تعتمد على الأسئلة لا على الأجوبة

الأدوات تجيب؛ لكنها لا تطرح السؤال المناسب. الفارق بين مفكّر وآخر ليس في الإجابة بل في سؤاله الأول. هنا خطّ الشروع الذي يكشفُ التفاوت الحقيقي.

- الإبداع عصيٌّ على الأتمتة، على الأقلّ في مثاباته المتقدّمة

الذكاء الإصطناعي بارع في الخيارات التنميطية وانتقاء العبارات الحيادية الباردة التي تبدو وكأنّها تصلح حتى للموضوعات المتناقضة سياقياً؛ لكنّه ضعيفٌ في تخليق التصوص الإبداعية المشرقة. الكاتبُ الجريء، الخلّاق، المختلف، لا منافس له.، ومن المناسب والمفيد لنا أن نطمح بأن لا يكون له منافسٌ تقني يوماً ما، وبأن نختصّ لأنفسنا مساحة بشرية لا تنافسُنا فيها المَصنّعاتُ الآليّة.

- التميّز لا يتحقق بالمنتج النهائي، بل بمسار الحياة

من يمارسُ رياضة الجري على نحو يومي منتظم سيبقى قوياً حتى لو امتلك أفخم وأغلى وأقوى سيارة في الأرض. كذلك من يفكّرُ يومياً (التفكير له عادة تلقائية) سيبقى مبدعاً حتى لو استخدم أعظم منتجات الذكاء الإصطناعي.

لماذا يظنّ البعض أن الجميع أصبحوا متشابهين؟

لم نصبح متشابهين في عصر الذكاء الإصطناعي. هذه أخدوعة كبرى. ما حصل بالضبط هو أنّ الأدوات الجديدة للذكاء الإصطناعي باتت تُنتج مُخْرَجاتٍ (مقبولة)- أي أنّها ترفع الحدّ الأدنى لجودة الكتابة؛ لكنّها لا ترفع الحدّ الأعلى. السقف الأعلى نحن -البشر- من يصنعه. هذه هي المفارقة التي يتغافلها كثيرون. الحد الأدنى إرتفع: أصبح بمستطاع أيّ شخص كتابةُ رسالة رسمية جيدة، أو مقالة مقبولة المواصفات في المتوسّط الأعمّ. الحدّ الأعلى (أو ما نفترضه حدّاً أعلى للكتابة الإبداعية) ظلّ عملة نادرة. إنتاجُ فكرة أصيلة، أو نصّ له حسّ ثقافي طاغٍ يدفع لإستمرارية القراءة، أو قراءة نقدية معمّقة.... هذه الفعاليات ظلّت نادرة ومخصوصة بأفراد مشخّصين. لم يجعل الذكاء الإصطناعي الإبداع حالةً مشاعيةً عولميّة.

مقايسة البيانو السحري

لنتخيّلْ آلة بيانو سحريّة بمقدورها جعلُ الجميع قادرين على العزف عليها بمستوى متوسط. هل تتوقّعُ ماذا سيحدث؟ لن يعود عزف المستوى المتوسط أمراً مميّزاً كما هو عليه الحال اليوم. بالمُقابل سيزداد الطلب على العزف المذهل، الفريد، الروحي، الفخم في قدراته الفنّية المتميّزة. ستُفتَضحُ

سرعة من يعتمد على الآلة متى ما حاول -طواعية أو قسراً- الخروج عن النمط المتوسّط في الأداء.

هذا هو ما يحدث اليوم مع الذكاء الإصطناعي: الأدوات الإصطناعيّة تمنحُ (المستوى المتوسط) لكلّ الناس؛ لكنّ المثابات العالية والمتفرّدة لا يطالها إلا الساعون إليها.

القرعاء لا تستوي بذات الشعر؛ بل تزداد تميّزاً وفرادة

في الحقيقة، الأدوات تكشف قدرات الناس أكثر مما توحّدهم في تنميط قياسي. من لم يعتد التفكير الإبداعيّ المستقلّ سيظهر عجزه أسرع؛ لأنّ الأداة تفضحه حين تمنحه شيئاً يحتاج أن يراجَع، يُفْهَم، يُنْتَقَد، يُوَجّه. أما المتمرس صاحب الخبرة، فيبدو صوته أوضح وأعلى وأكثر تميّزاً لأنّ الأداة تتيح له مساحة أكبر للإبتكار، وتحرّره من الأعمال الرتيبة ليظلّ بكُلّيّته داخل نطاق فقاعته الإبداعيّة.

كبرياء العقل وتطبيبُ الروح المعطوبة: المقاربة السايكولوجية

ثمّة جانب سايكولوجيٌّ يغفل عنه كثيرٌ من المبالغين في تقدير أثر الذكاء الإصطناعي على الإبداع البشري: ذلكم هو **الغرور الفكري الجميل** الذي يميّزُ المفكّر الخلّاق عن الطفيلي الذي أدمن العيش على المخلّفات الفكرية. هذه الغطرسة - وإن بدت للبعض سلبية - هي في حقيقتها ضرورة معرفية؛ إذ لا يجرؤ العقل الخلّاق على أن يكون مُنقاداً بالكامل لآلة، مهما بلغت كفاءتها الأدائيّة. المشتغل الحقيقي في أيّ حقل معرفي لا يقبل أن يُختزَل إلى مستهلك لإجابات جاهزة. إنه يطلب دوماً أن يكون المصدر لا الفرع، وأن يكون السؤال لا التعليق .تلك الكبرياء الفكرية هي التي تدفعُهُ لأن يتشكّك في كل ما يُعطى له، وأن يختبر، ويغامر، ويخالف، ويبتكر. لو حصل وأن سلّم زمام عقله للذكاء الإصطناعي تماماً لفقد الشرارة التي تجعله كائناً مفكراً، وتلك مقتلتُهُ الكبرى بلا شكّ.

أما الموضوعة الساليكولوجية الثانية، وهي في رأيي أعمق وأكثر إنسانية من سابقتها، فهي أنّ **الكتابة الشخصية ليست عملية إنتاج للنصوص فحسب بل علاج نفسي خالص** .ليس سرّاً أنّ الكثير من البشر - كُتّاباً وغير كُتّاب - يجدون في الكتابة مساراً لتفريغ التوتّر، وترتيب الفوضى الداخلية، وعقلنة الحزن، واكتشاف ذواتهم في لحظات الهشاشة والقلق. **الكتابةُ فعلُ مواجهةٍ مع النفس قبل أن تكون مواجهة مع اللغة،** ومن يعتمد اعتماداً كاملاً على

الذكاء الإصطناعي في هذا الباب يخسر شيئاً ثميناً: **المختبر الداخلي الذي تُصفّى فيه الآلام المبرّحة، وتُهذَّب فيه الإنفعالات المميتة، ويتربّى فيه السلام النفسي المكين.** النصُّ الذي لا تكتبه بيدك لا يحرّرُك، ولا يكشف جرحك، ولا يساهم في مداواة روحك. لذا فإنّ تسليم الكتابة - بكل ثِقلها الإستشفائي الروحي - لآلة، يشبه إرسال شخص آخر ليخوض بدلاً عنك جلسات علاجك النفسي: قد يعود لك بتقرير مفصّل عن حالتك؛ لكنه لن يُبْرِئك من إعتلالك.

خاتمة: كيف يكون السؤال الحقيقي؟

ليس السؤال المناسب هو **(هل استوت القرعاء بذات الشعر؟)**؛ بل السؤال الحقيقي هو: **هل اخترنا نحن بإرادتنا الفردية أن نكون قُرَعاء؟**

في عصر الذكاء الإصطناعي، لا تُلغى الفوارق البشرية بل يعاد ترتيبُها. مَنْ يملك العزم، الرؤية، الوعي، والقدرة على صقل إمكانيّاته، سيجد في الذكاء الإصطناعي محرّكاً إضافيّاً، ومَنْ يظنّ أنّ الآلة ستفعل عنه كل شيء سيجد نفسه متكئاً على قدمين ضعيفتين، غير قادر على الجري السريع عندما تدعو الحاجة.

*** كاتب ومهندس عراقي**